

عَفْوُ الْمَلِكِ أَسْرَكَافٍ

أَقْضَوْصَةً مَقْصَرِيَّةً
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ

وكان من عادة الملك الصالح أن يذهب كل صباح إلى معبد خنوم للصلاة والعبادة ، وفي ذات مرة دخل إلى قدس الأقداس وخلا إلى تمثال الرب وثم قدمه ثم صلى صلاة حارة وشكر الرب كثيراً وعدد آلاءه ونعمائه وختم صلاته بقوله : « الحمد لك يا أبني

خنوم لما أوليتني من حب الناس وإخلاص الأصدقاء فان حب المخلوق من رضا الخالق ، وليس أسعد في الدنيا ممن تسعد القلوب لسعادته وتشقى لشقائه »

ولأن الناس في تلك الأزمان كانوا يعبدون الآلهة بقلوب ملؤها الاخلاص والايمان والسذاجة فقد كانت الآلهة تكرمهم بالحديث تارة وبالمعجزات تارة أخرى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يسمع فرعون صوتاً سماوياً يقول له :

— لقد منحتك حكمة أيها الملك فلماذا تظلمن إلى الناس كل هذا الاطمئنان ؟

فمجب الملك لقول الرب ودب القلق في قلبه فقال في قنوت وخشوع :

— أيها الرب المعبود ... لقد خدمت شعبي بإخلاص فصدقني الحب ، ووفيت لأصدقائي فحق عليهم الوفاء لي ، فكيف يجوز لي أن أدع للريبة نفقاً إلى نفسي ؟

فقال الصوت للساوي الذي يجمل عن الوصف والشبيه :

— أنظر إلى الشجرة المورقة التي تملأ الجو بالأغصان وتلفح بالخضرة البانمة كيف ينفى الناس إلى ظلها الممدود يحتمون به من أشعة الشمس ويقطفون ثمارها البانية ، وانظر إليها إذا جرد

كان الملك أسركاف من أجل ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر حكماً اقترن فيه المدل بالرحمة والحزم بالكمياسة والقوة بالحب ، وكان من سياسته — لدى أول عهده بالجلوس على العرش — أن عبأ جيشاً قوياً زحف به على الصحراء الغربية ليقضى على شوكة القبائل الرحالة التي أطمعها ميل الملوك السابقين إلى السلام — في نهب القوافل وسلب قرى الدلتا والاعتداء على الأمنين ، فانتصر عليها انتصاراً مبيناً وشتت قواها ورجع من غزواته بجيش من الأمري وأتقال من الفناء ، ووطد بذلك سلطانه وفرض هيئته وأعلى كلمة مصر وكفى أهلها شر القبائل المتوحشة ، والتفت في ظل السلام والطمأنينة إلى حالة البلاد الداخلية وأولاهها عنايته وحب ، فشق الطرق وحفر الترع وأقام لنفسه هرمًا منيعاً في أسوان عاصمة مملكته ، فكان عهده عهد أمن ورخاء وتعمير ، وعاش الملك بين شعبه المجيد سعيداً مطمئناً يتلج صدره ما يجد من حب رعيته له ويسعد أيامه ولياليه ما يلقى من إخلاص نفر من كبار رجاله يتفانون في محبته ؛ وكانوا له نعم المولى ونعم الصديق ، من هؤلاء سحوري ابنه وولي عهده ، وحروري رئيس وزرائه ، ومن كبير كهنة الرب خنوم ، وسمنري القائد العام للجيش المصري

سأقوم من الفد برحلة إلى بلاد بنت ، فتول أنت سهام الدولة في أثناء غيبتى ، وانتظر أياماً ثم أعلن نفسك ملكاً على وادى النيل ، وأطمع صحابى فى جاهك ومالك وعدمهم ومنهم كى يخفضوا لك جناح الدل والطاعة ولنر ماذا يكون من شأنهم ...

ولكن قاب الأمير نفر من تدير فرعون واحتج قائلاً :

— أصرع إليك يامولاي ألا تحملنى على موقف أشهر به عقوبى على المالمين ! وألا ترضى بغيبة طويلة تحرم قلبى من طمأنينته وتسلب الشعب سهرك عليه وعنايتك به .

ولكن الملك أننى على عواطفه وبدد مخاوفه وحمله على الرضوخ والاذعان وذهب إلى الملكة للشابة فاي — وهى غير أم ولى العهد التى ماتت منذ عهد بعيد — فودعها كما ودع كلبه الحبيب زاي ، ثم ركب سفينة تجارية أبحرت به إلى بلاد بنت المقدسة منبت البخور المبق ؟ وعاش عهداً غير قصير يتنقل بين وديانها الخصبية فيلقى الاكرام والترحيب اللذين كان يقابل بهما رعايا فرعون أينما حلوا وحيثما نزلوا ... وكان لا يتفك يفكر فيما عسى أن يلقاه من رعيته وصحبه حين أوبته وكان كلما لج به سوء الظن وأورده ممالك الأوهام والمواجس فر إلى جميل الذكريات المنطوية يستدر ثقتها ويستلهمها الصبر والطمأنينة ، فلما أن ضاق صدره بالقلق والوساوس وغشيت قلبه وحشة الضربة عزم على العودة إلى وطنه فجمع متاعه القليل وأبحر على ظهر سفينة مصرية أرست به على شاطئ الأرض التى أفنى زهرة عمره فى سبيل إسعادها ، وقصد من توه إلى أقرب قرية واختلط بأهلها وهو فى ثياب (٤)

الشتاء عليها الرياح الباردة فتساقطت أوراقها وذبلت أغصانها وتمرت كجثة بالية لم يصبها تحنيط ، كيف يهجرها الناس ويقطعون أغصانها ليلقوا بها فى النيران ... !

وعاد الملك إلى قصره حزينا كئيباً يستعيد ما قال الرب ويتأمل فى معانيه ، فيوسوس الشك فى صدره ويرين القلق على قلبه ، ومضى يستحضر ذهنه الوجوه العزبة التى عاشرته الأعوام الطويلة فى مودة وصفاء — لأول مرة — فى هالات من الريبة تكشف خلف أحاديثهم الرقيقة عن أكاذيب معسولة وتستشف وراء ابتساماتهم رياء مقبها وترى فى فروض الطاعة التى يلتزمها أترأ للرعبة والخوف ، وطفت موجة عارمة من سوء الظن على نفسه فجعل يرجع إلى الماضي السعيد المنطوى بالماخ صفحاته للناسمة بقاذورات الظلنة والشك فبدت له حياته التى آمن يوماً بأنها سلسلة من السعادات غفلت عنها عين الأفئدة ... خدعة نكراء وشقاء قابلاً خلف قناع سعادة زائفة

وفطن الأمير سحورى إلى حالة الملك الفريية فتبلبل فكره وركبه الهم وسأل أباه عما يكدر صفوه وكان الأمير يحب والده حب عبادة ، وكان الملك يحب ابنه كأعز شيء فى دنياه ، ويشق به ثقته بنفسه فبته حزنه ، وأفضى إليه بمخاوفه ، وروى له حديث الرب خنوم . واستولى الارتباك على الأمير ولم يدر كيف يطرد عن أبيه أشباح الشكوك ، وكان الملك لا ينقطع عن التفكير فقال لولى عهده :

— أنا لا أستطيع التنكيل بالمنافقين مالم يقر لى الدليل المحسوس على نفاقهم وقد اهتمت إلى طريقة أكشف بها عن خبيثة نفوسهم فاصنع لى يابنى .

القرية حتى أنسوا به فسأل جماعة منهم يوماً قائلاً :

— من ملككم أيها الرجال ؟

فأجابه شاب لفحت الشمس وجهه وقتل
الفاأس ساعديه .

— المبارك اسمه سحورى

فسأله الملك :

— وكيف ترونه ؟

فقال الشاب بحماس أمن عليه رقة وءه :

— هو ماؤنا إذا النيل نضب وساعدنا إذا

اشتد الخطب وادلهم

فسأله الملك :

— فكيف تذكرون أسركاف ؟ فقال :

— بالخير لولا أنه فى ميدان وملكنا فى ميدان

فنهده الملك وسأله بصوت حزين :

— كيف خذلتموه وقد كان لكم نعم المولى

ونعم النصير ؟

فخدجه الشاب بنظرة قاسية وقال له وهو
يوليه كشحه .

— إن العصيان شر لعنته الآلهة ...

فهجر الملك القرية حزينا وسار إلى النيل إلى

عاصمة ملكه ، وولى وجهه شطر معبد خنوم

وطلب مقابلة الكاهن الأكبر سمن فدعى إلى

المحراب ولما رآه الكاهن عرفه بالرغم من ثيابه

القرية فبدت عليه الدهشة وتولاه الانزعاج وهتف

بصوت مبجوح :

— مولاي الملك أسركاف

فابتسم الملك ابتسامة صريحة ساخرة وسأله كالفكر

— كيف تدعوني بمولاك الملك وقد باركت

بالأمس عاصيا عاقا اغتصب عرشى ؟

فاضطرب الكاهن وزاغ بصره وقال بتلعثم :

— مولاي ، وما عسى أن يفعل رجل ضعيف

مثلى لم بعد للقتال ؟

— ليس القتال فريضة على كل إنسان ولكن

الوفاء واجب محتوم على كل رجل فاضل ، فكيف

تخلد إلى خدمة من غدر بمولاك وولى نعمتك ؟

واشتد الارتباك بصديق الملك القديم واعنته

حيرة ، فلم يجر جوابا ، فقال فرعون :

— تستطيع يا سمن أن تكفر عن ذنبك بأن

تعلن على الملأ عدم شرعية ولاية ابني سحورى

فتقدم إلى خدمة بطمعى فى أدائك لها ماعهده فىك

من الوفاء فى عهد مضى

واكن الكاهن ذعرا وارتمب وقال بتضرع :

— لا أستطيع يا مولاي ... إن واجبي خدمة

الرب لا خلع اللوك

فصمت الملك لحظة بطارد بعينيه المستمرتين

عيني الكاهن اللتين تتحاشيان النظر إليه ، ثم ولاء

ظهره دون أن يزيد وترك المبد كتيب النفس ضيق

الصدر يعض أظفاله حسرة وأسفا

وأسرع الخطفى إلى قصر رئيس الوزراء حرورى

وطلب الاذن بمقابلته ولكن الخدم احتقروا هيئته

الزرية فهموا بطرده فتوسل وتضرع فزادوا إلا

استكبارا فقال لهم إنه صديق الوزير وسمى لهم اسما

يعلم أنه من المقربين ، فأذن له بالدخول وما إن وقع

نظر الوزير على القادم حتى فزع قائما وقد أنلجت

أطرافه وانسمت حدقتا عينيه وصاح بلا وعى :

— مولاي

فقال الملك بهدوء :

— طيب الرب أوقانك أيها الصديق حرورى

فاستولى الملح على قلب الوزير وسأل مليكه
السابق في لهفة :

— هل رآك أحد وأنت تدخل بيتي ؟

فقطن الملك إلى الباعث على هذا السؤال وبدأ
يستشعر اليأس والقنوط فقال :

— نعم أيها الصديق رآني الخدم وجمع غفير

ممن يجتمعون ببابك

فسأله بصوت بحه الفزع :

— وهل عرفك منهم أحد ؟

فقال الملك :

— لا أدري

فصاح الوزير :

— واضيعته لو علم الملك بزيارتك لقصرى

— وهل تخاف هذا الفاسب العاق ؟

— كيف لا ؟ أتوسل إليك أن تغادر قصرى

من الباب الخلفى

— أو تطردنى أيها الصديق حرورى ؟

— معذرة يامولاي ، إن ظرفى دقيق وإنى

أضرع إليك باسم صداقتنا القديمة

فضحك فرعون ساخرآ ، ورأى رئيس وزرائه

في حالة من الملح برئى لها فلم يجد به من فائدة ترجى

ولم ير بدا من مفادرة القصر من حيث أراد صاحبه

فغادره وقد اعتلاه الحزن وران على صدره الندم...

ولم يبق من أصدقائه سوى القائد سمئى ،

وبالرغم مما حل به من للفشل لم يقو سوء ظنه

ومرارة نفسه على زعزعة ثقته به لأنه كان رجلا

شهما بأسلا وعظيم الاخلاص ، ميزته الأرباب بطبع

لا تطمع فيه الخيانة ولا الدنايا ، فقصده إليه بيقية أمل

وظلب الاذن بالدخول عليه . ولما وقمت عليه عيناه

حن قلبه إليه فصاح به وهو يفتح ذراعيه له :

— أيها القائد سمئى ... ألا تذكرني ؟

وبهت القائد وقام واقفا منزجآ وقال بدهشة :

— مولاي الملك أسركاف

فقال فرعون برجاء :

— نعم هو بذاته وبؤسه وأسفه

ولم ير القائد ذراعى الملك المفتوحين وبدت على

وجهه آى الصلابة والشدة ، فسأل مليكه السابق

بحفء قائلا :

— هل يعلم جلالة الملك بدخولك مملكته ؟

فبغت أسركاف وسقطت ذراعا في خيبة مررة

وقال باقتضاب :

— كلا

فسأله القائد بلهجة أشد من الأولى :

— وماذا جئت تفعل في مصر ؟

فقال الملك :

— جئت أستصرخ أصدقائى القدماء

فتقدم القائد من فرعون وقال بلهجة عسكرية :

— إن واجبي كقائد للجيش المصرى يقضى

على بأن ألقى القبض عليك باسم الملك

فقال له أسركاف :

— ألا تعلم أنى أنا الملك الشرعى . فقال للقائد

وهو يضع يده على كتفه :

— إن لمصر ملكا واحدا لا أعرف سواه

وأيقن فرعون بعث الجدل فاستسلم للقائد

وترك له نفسه يسير به إلى القصر للفرعونى ودخل

القائد إلى بهو العرش يسوق بين يديه الملك ، ورأى

أسركاف ابنه جالسا على عرشه ومن حوله رجال

مملكته وعلى رأسهم حرورى ومن فعمل أنهما بادرا

وأثنت الحاشية على بر الملك ولهجت ألسنتهم له بالدعاء ؛ أما أمر كاف فقد اشتد عليه البلاء حتى ألجم منه اللسان وشتت الأعضاء ، وكان زاي قد أحس بألمه فجعل ينبس ويتحسس عباءته التي عفرها التجوال

وأفاق الملك إلى نفسه فثار على ضمغه وتمالك زمام نفسه وقال لابنه :

— والمملكة تاي ؟ . فقال له ابنه :

— هي الآن ملكة مصر السعيدة

فتهد الملك وقال :

— هل أطمع في أن تأذن لي في اصطحاب زاي ؟ فقال :

— لك هذا فقد ضايقتنا بنباحه !

وغادر الملك أرض مصر ملوماً محسوراً يقلب كفيه من الألم والحزن وسوء المصير وولى وجهه شطر الجنوب يتبعه كلبه الأمين وحط في بلاد النوبة وعاش بين جبالها في عزلة رهيبة لا يكلم إنسياً ، فإذا ثقل عليه الهم والألم بث شكواه المخلوق الوحيد الذي صدقه الحب ومحضه الوفاء واحتمل وحشة العزلة صابراً من أجله

ولم يدعه حاكم النوبة المصري في عزلته طويلاً فزاره ودعاه إلى زيارته ولم يخف عنه المودة والاكرام وما لبث الملك أن اكتشف خبيثة نفسه فوجده حاكماً متذمراً يرى منصبه في بلاد النوبة غيبنا له وسوء تقدير لخدماته ومؤملاته . فالتج في قلب الملك بارق أمل فاستغل سخط الحاكم ووعدته ومناه حتى حمله على تجريد حملة من النوبيين والمصريين ، سارا على رأسها صوب الشمال ، وأعد الملك سحورى جيشاً لتأديبهما والتحم الجيشان في معركة فاصلة خالف

إلى الثول بين يدي مولاهم لينبأ بظهوره ، وحشد في نفسه مجيئهما ليشهدا ويشهد معهما القائد صموده إلى عرشه وتسلمه الأمانة التي أودعها يدي ابنه الأميين فيذوقوا جميعاً مر الحزى والمار وتذهب نفوسهم الخبيثة حشرات وتتقطع ندما ...

ونظر الملك إلى ابنه وابتم إلى ابتسامة ذات مغزى عظيم وهم بالكلام لولا أن سمع نباح كلب عالياً ورأى زاي يتخطى صفوف الحرس ويهرع إليه بقوة لا ترد ويشب عليه بيديه ويوسمه حينئذ دل على الجوى والشوق ، وما استطاع أن يهدي نأثره وبطليب خاطره إلا بعد جهد جهيد ، وغلب التأثير على الملك فتقدم إلى عرشه بخطوات ثابتة حتى أوقفته أيدي الحرس ، فاستولى عليه للمجب ونظر إلى ابنه وقال :

— قم يا بني فقد انتهت تجربتي ودعني أمثل بهؤلاء المنافقين

ولكن ابنه لم يقم ولم يتخل له عن مكانه وقال له بمظلة السلطان :

— ماذا جئت تفعل هنا أيها الرجل الذي أعطته الآلهة ملكاً واسماً فتهاون في حقه وذبح بلهو في بلاد بنت ؟

فوقع قول الابن على آبيه وقوع القضاء ، فاقسمت عيناه وجرت فيها الدهشة والجنون وجعل يقلب وجهه الداهل بين ابنه المنجرف ورجاله اللشامتين . ولم يصبر عليه ابنه فقال له بقسوة :

— يحق لي الآن أن أفصل رأسك عن جسدك ولكن لا أنسى أنك أبى ولا أحب أن أرتكب تلك الجريمة التي تستنكرها تقاليدنا فأوسع لك من صدري صبراً وأمهلك يوماً تعد فيه عدتك ومن ثم تنفي إلى بلاد النوبة ...

فابتسم الملك وقال بتهكم :

— من لي بولي عهد جديد ؟ ومن لي بكاهن
أتق من سنن أو وزير أقدر من حروري أو قائد
أبرع من سننري ؟ بل يا ليت الملكة ناي لم تسارع
إلى القضاء على نفسها إذا لأجلستها إلى جانبي على
هذا العرش مرة أخرى ، أما الاخلاص أيها الحاكم
فقد أمسيت أسىء الظن بجميع البشر ؛ ولست أعظم
ثقة بك نفسك من هؤلاء ، وإن جميع الناس ليأوون
إلى ظل الشجرة المورقة فاذا عرّاهما جدد الشتاء
هجروها غير آسفين ، ولن يجديني قتل هؤلاء فتيلاً
كلاً ولن يبذلني بهم من هم خير منهم

وعاش الملك أسركاف بقية عمره في عزلة قلبية
لا يؤنس وحشتها قصر آبو ولا الجم الغفير من
الشعب والحاشية لهم إلا زاي الصديق الأمين !
نحبب محفوظ

التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكي مبارك

يقع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين ونفعها معاً أربعمائة
قرشاً ، وهو يطلب من المكتبات الشهيرة في البلاد العربية
ويطلب بالجملة من طابعة الرسالة

النصر فيها الملك أسركاف فدخل عاصمة مملكة فاتحاً
وقبض على ابنه وأصدقائه القدماء وأودعهم غيايات
السجون ...

ولما علمت الملكة ناي بانتصار جيش زوجها
السابق تولاهما الخوف فقتلت نفسها وفوتت على الملك
فرصة الانتقام منها ، على أن الملك لم يرض أن يبت
في أمر من الأمور ولا أن يقرر مصير أحد من
أمرائه إلا حين يسكت عنه الغضب وتهدأ نشوة
الاتصار في نفسه ويجد فرصة طوبلة للتروي ومهلة
للتفكير . وسهر ليلة طوبلة يفكر ويدبّر التأمل حتى
اهتدى إلى رأى ...

وفي الصباح أمر بابنه وصحبه فجاء بهم إلى عرشه
وكانوا جميعاً منكسي الذقون زائني النظرات ترهقهم
ذلة ويشملهم قنوط . فتألمهم الملك ملياً وعلى شفثيه
ابتسامة غامضة ثم قال بهدوء عجيب :

— لقد عفوت عنكم جميعاً

فاستولت عليهم الدهشة ولم يصدقوا آذانهم
ونظروا إلى الملك الجالس على عرشه بهيب وتبادلوا
نظرات التعجب والحيرة وعدم التصديق ، فقال
الملك بهدوءه المريب :

— إنني أعني ما أقول أيها السادة ، لقد عفوت
عنكم فمودوا إلى مناصبكم وباشروا أعمالكم بالهمة
والاخلاص للذين عهدتكم فيكم

ولم يستطع حاكم بلاد النوبة صبراً فقال :

— أتمفو يا مولاي عمن اغتصب عرشك
وطردك من مملكته بلا رحمة ؟ أتمفو عنهم يا مولاي
وما يزال عالقا بأرديتهم أثر الدم الذي سفكوا في
قنالك ؟